# ملامح السرد في تصوير الشخصية
# في حديث عيسى بن هشام للمويلحي

**بحث للأستاذ الدكتور**
أحمـــــد يوســــــف خليـــــفة
**وكيل كلية الآداب لشئون التعليم والطلاب**
**جامعة سوهاج**

**مقدم إلى مؤتمر**
السرديات في الأدب والعلوم الإنسانية
**كلية الآداب والعلوم الإنسانية**
**جامعة قناة السويس**
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

## محمد المويلحي (١٨٥٨- ١٩٣٠م)

في أحضان المال والأدب والسياسية، كانت نشأة محمد المويلحي، فأبوه إبراهيم بن عبد الخالق المويلحي المُتَوَفَّى سنة ١٩٠٦م، رفيق الإمام محمد عبده، والشيخ جمال الدين الأفغاني في باريس، والمشارك معهما في تأسيس مجلة العروة الوثقى، وهو نديم الخديوي إسماعيل، ومؤدب بعض أبنائه.

استقرت أسرة المويلحي- بعد هجرتها من مويلح أحد الثغور شمالي الحجاز- في مصر، وعمل أفرادها بالتجارة، لاسيما تجارة المنسوجات الحريرية. ثمَّ عمل إبراهيم المويلحي بالصحافة، فأنشأ أكثر من صحيفة، كان أشهرها صحيفة "مصباح الشرق"، التي تولى رئاسة تحريرها صاحبنا محمد المويلحي في حياة أبيه، ونشر فيها فصولاً من "حديث عيسى بن هشام".

شارك محمد المويلحي في أعمال الثورة العرابية بتوزيع المنشورات ضد الإنجليز، فقبض عليه، وحكم ضده بالإعدام، ثمَّ خفف إلى النفي خارج مصر، فلحق بأبيه في أوربا، ثمَّ رحل إلى الآستانة لقراءة المخطوطات ونسخها، ثمَّ عاد إلى مصر ليكتب مقالاته في الصحف المصرية حول القضايا الوطنية والثقافية والاجتماعية بقصد الإصلاح والتوجيه، وبمشاركة كبار الرواد؛ أمثال الإمام محمد عبده، وقاسم أمين، ولطفي السيد، وسعد زغلول.

وكتابه "حديث عيسى بن هشام" يعد أهم عمل أدبي للمؤلف؛ إذ صنع من الخيال تكويناً فنيًا أبرز فيه بعض جوانب المفارقات العجيبة بين عصرين متقاربي الزمان، متباعدي القيمة والثقافة، متأثرًا بمقامات بديع الزمان الهمذاني في نظام الحكي والسرد، دون الإغراق في المحسنات، وكان لهذا العمل توظيف جيد في النقد الاجتماعي والرمز السياسي الهادف.

## حديث عيسى بن هشام

الحديث رحلة خيالية في أعماق المجتمع المصري وإلى باريس، بقصد التعرف على الصور والمشاهد الاجتماعية والسياسية والثقافية في المجتمعين، وإبراز ألوان المفارقات العجيبة والمشاهد الغريبة، التي تسيطر عليهما، كما يبرز الحديث المفارقات العجيبة بين ثقافة عصرين.

الرحلة الأولى تبدأ من أحد أحياء القاهرة القديمة حي السيدة عائشة والإمام الشافعي، وهو حي له طبيعته الشعبية، إذ يضم فئات الطبقات الدنيا من سكان القاهرة، منهم سكان المقابر، وأصحاب المركبات التي تجرها البغال والحمير المؤجرة، والباعة الجائلين، والقائمين بخدمة القبور وعمال النظافة، وجامعي النفايات، وبعض صغار الموظفين.

اعتمد الحديث على شخصية محورية وهي شخصية الباشا، الذي خرج إلى مجتمع غير المجتمع الذي كانت نشأته وحياته فيه، جاء يحمل تقاليد وعادات وثقافة تكون شخصيته التركية صاحبة الأنفة والكبرياء والتعالي، فضلاً عن شخصيته العسكرية الحاكمة، التي تعودت أن تأمر فتطاع، حيث كان ناظرًا للجهادية في حكم محمد علي، وهو الآن يفاجأ بثقافة جديدة.

كانت المفاجأة الكبرى والصدمة الغريبة عند أولى خطواته في هذا المجتمع الغريب عليه، بمشكلة مع صاحب حمار أجير للركوب، وقد أحسن المؤلف اختيار الطرف الآخر في المشكلة؛ حتى يزيد من مفارقة الموقف، وهول المفاجآت فيما بعد، حيث اصطحاب الباشا إلى القسم، ثمَّ إلى المحكمة ليلقي الادعاءات الباطلة المؤيدة بالأدلة والحجج التي ورطته في أمور غريبة عليه، لم يرَ لها مثيلاً في حياته، وتلك إحدى صور المجتمع في هذه الآونة.

الحديث في أولى مراحله يحمل المفاجآت الغريبة عن الباشا، منها:

شخصية المكاري السليط اللسان، والمخادع، صاحب الحيل والادعاءات الكاذبة، تعامل مع الباشا كأنه رجل من عامة الناس، فلقي من الباشا الضرب، فاستغاث المكاري بالبوليس، الذي أصر على ذهابهما إلى مركز الشرطة.

شخصية معاون الشرطة الذي يغط في نومه، ورجال الشرطة يعملون على راحته وخدمته وعدم إزعاجه، وفي الوقت نفسه قد سلطت أيديهم وجيوبهم على كل من جاء شاكيًا أو مشكوًا، وحيث العويل والصراخ من الضرب وسلب النقود.

شخصية شيخ الحارة الضامن الوحيد لمن أراد الخروج من قسم الشرطة، وهو رجل تمرس في الحصول على الأموال من أرباب القضايا بحجة الحيلولة بينهم وبين السجن.

شخصية مفتش الداخلية الأجنبي، الذي فاجأ القسم فشاهد ما فيه من مهازل، فعاقب معاون الشرطة، فما كان من المعاون إلا أن أمر بحبس جميع من بالقسم أربعًا وعشرين ساعةً، ومنهم الباشا، وذلك بعد مغادرة المفتش للقسم.

كل ذلك ولسان حال الباشا يقول: "اللهم عفوك وصفحك، هل قامت القيامة، وحان الحشر، فانطوت المراتب، وانحلت الرياسات، وتساوى العزيز بالذليل، والكبير بالصغير، والعظيم بالحقير، والعبد بالمولى، ولم يبقَ لقرشي على حبشي فضل، ولا لأمير منا على مصري أمر ..."، تلك التساؤلات والمقابلات توحي بحتمية الإجابة عن هذا التساؤل: أي العهدين أفضل وأكثر قبولاً؟؟

ويزداد الأمر تعقيدًا، وتزداد الحياة سوءًا لدى الباشا حين يعلم أن الأمير أحمد سيف الدين حفيد الأسرة الخديوية قد أودع السجن، فتتنامى لدى الباشا مشاعر الدهشة والإنكار "كيف لا

تخر الجبال الشم .. كيف لا تنشق القبور وينفخ في الصور، وقد انحط المقام، وسفل القدر، وحقت كلمة ربك على مصر، فجعلنا عاليها سافلها ...".

وشخصية المحامي وسماسرته، وهم يخدعون الناس بالوعود، وتحقيق الآمال، ومعرفتهم بالنيابة ورجال القضاء، بل مدعين الصداقة والسهر الليلي معهم. خداع المحامي في طلب المقدم والتوقيع على المؤخر، ثمَّ الاتفاق مع الخصم، وترك القضايا في مهب الرياح.

الحديث يصور مشاهد ومواقع تثير السخرية والنقد الحاد، ومنها مشاهد المحكمة الأهلية، وما تضم من صور التقاضي بين المتخاصمين، المحكمة التي تسودها مهازل الحوار المخادع وشهود الزور، ومحاولات الكسب للقضايا بمهارات السفسطة والكذب وأيمان الغموس، وخداع القضاة، وقد تنتهي القضية إلى محكمة الاستئناف، وهي ليست أحسن حالاً من سابقتها في قضايا كثيرة، لكن الباشا يظفر في النهاية بالبراءة من تهمة المكاري بعد أن مرت سنوات من المعاناة في ساحة العدل البطيء. والحديث عن هذه المشاهد يبغي الإصلاح بطريقة النقد الساخر بآليات الرمز والتلميح، وقد يلجأ إلى التصريح والتوضيح في رفض الصور والمواقف المرضية أو غير السوية. لكن الباشا مع مرور الزمن وتوالي الضربات يحاول أن يستوعب الصدمات، والامتثال للأوامر وتقبلها عن كرة، أو عن مداراة بعد تجرع لجرعات الصبر، أو التصبر على النوائب والنوازل.

ثمَّ يستمر الباشا في رحلته باحثًا عن وقف كان له، وهي رحلة أشد من سابقتها وأشقى؛ حيث المعاناة في البحث، والتضليل، والتمويه، والحيرة، والخذلان، ثمَّ يكون العجب والدهشة في معرفة ملامح المكان، والتعرف على واحد من الجيران ليقص على الباشا نوازل الحدثان من الكوارث والنوازل والخطوب على الأهل وعلى الوقف، حيث تغيرت المعالم، وتبدلت الأركان، وسادت ملامح الأطلال، وضعفت الذمم، وتجرأ الناس على أكل الحرام.

يقول صاحب الحانوت: "فما لبث الوقف أن تهدم وتخرب بطول الترك والإهمال، فوقعنا كلنا في الفاقة والاحتياج، وانقلب الكتاب مخزنًا، والسبيل خمارةً، والمسجد مصبغةً ...".

يجأر الباشا بالشكوى من كل ما يرى وما يشاهد، وما يلاقي من سوء الأحوال: "أفكان رجوعي إلى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه تعذيبًا لي على ما فرطت في جنب الله؟ أو لم يكن عنده سبحانه في الآخرة من عذاب النار ما يغني عن التعذيب بالعار في هذه الدار؟ رب إن الجحيم لأهون علي من العذاب والنكال مما ألاقيه في المال والعيال".

ويحاول الباشا ورفيقه استيضاح الأمر، واستبيان الطريق التي تهديهم إلى ما بقي من الأحفاد، لكن لا يجدان إلا السخرية والتنكر، ومزيدًا من الهموم والأكدار، حتى وصلا إلى قصر أحد الأمراء من بقايا العهد الماضي، وقد تنسك واعتزل الحياة السياسية، وضم إلى مجلسه أصحاب الطرق والمريدين من العلماء والمشايخ والقادمين من بلدان أخرى لزيادة

الديار المصرية، وكانت جلسة هذا الأمير عامرةً بالأحاديث والنوادر والسير والقصص، والباشا ورفيقه ينصتان إلى ذلك.

ولما عرف المجلس قصة الباشا وخروجه من القبر ورجوعه إلى الدنيا، كانت الإجابة متضاربةً ما بين تصديق وتكذيب. ثمَّ قام الباشا واعظًا في المجلس: "عليكم بالعدل والإحسان، وتقوى الله في عباده، وإفشاء البر والمعروف في خلقه، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء، فتركنوا إلى الاغترار بالأمل، وتطلبوا المغفرة بلا عمل .....".

ومن أهم أهداف الحديث رسم شخصيات ونماذج بشرية لتوضيح المفارقات الغريبة والعجيبة، التي تكون سلوكيات هذه النماذج، التي لم يتعودها الباشا، وكانت هذه السلوكيات تمثل مفاجآت وصدمات؛ حيث لم يتعود رؤية هذه الألوان التي يعتقد أنها مرضية لغرابتها عن حياته الأولى.

ومن أهم هذه النماذج البشرية التي يرسمها الحديث أيضًا شخصية المحامي الشرعية، التي جاءت مقوماتها في صورة ساخرة ومخادعة، وحياته رثة بالية في المسكن والملبس: "دخلنا حجرةً فوجدنا فيها حصيرًا تغطى بالغبار والحصباء، ومتكئًا تعرى من الفراش والغطاء، ورأينا عند الباب صبية يلعبون، ومن بينهم طفلة تجمع على وجهها الذباب مثل البرقع ... رجل يخدع الأنام بطول صلواته، ويتلو سورة الأنعام في ركعاته ....".

ومنها أيضًا شخصية الدفترخانه: "قصير القامة، كبير العمامة، ذو وجه مقنع بالاصفرار، وعين مكتحلة بالاحمرار، وقد طوى من خلفه الجبة، ورفعها على ظهره كالجعبة، وفي حزامه دواة من نحاس أصفر، وبين طيات العمامة أوراق بالتواريخ والنمر، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم".

ومنها أيضًا المتقاضون في المحكمة الشرعية من الرجال والنساء: امرأة حبلى، تتقلب على الأرض كالثعبان، وبعلها أنكر حملها، نساء صائحات نادبات شاكيات ... منهن كاشفة عن ثديها ترضع طفلها، وغيرها ترضع طفلين، وزوجها يضرب رأسها بالحذاء ... من بينهن من يتقدمها طليقها، ويتبعها عشيقها، رجل وامرأة يتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر، يتجاذبان غلامًا كأنما يريدان اقتسامه، والغلام يبكي من شدة الألم. امرأة تنتحب وتقول: "لو كان للنساء قضاة من النساء، لما وصلنا إلى هذه الحالة التعساء ...".

ومن النماذج البشرية أيضًا التجار، وأصحاب الحرف، وأرباب الوظائف، ومن المشاهد الاجتماعية مشهد عرس ولوازمه، والمدعوين وفئاتهم من العامة ومن الخاصة، وما فيه من ملاهٍ ومأكولات، وما فيه من تقاليد وعادات.

ومن أهم هذه النماذج البشرية في الحديث العمدة، الذي يتملك الأموال الكثيرة، ولا يحسن استغلالها، إذ يبذرها في الملاهي والشرب، ومجالس صحبة الأشرار، ولذيذ المأكولات

والمشروبات، وسمر الليالي في المطاعم والحانات؛ حتى يضطر إلى رهن عقاراته، ثمَّ بيعها بأبخس الأثمان؛ للوفاء بلذاته في الملاهي والمراقص، والشراب، وإرضاء الراقصات والخليعات.

ولا يترك الراوي حدثًا أو مشهدًا إلا آخذًا منه العبرة والموعظة، ويفصح عنها بطريقته الهادفة إلى التقويم والإصلاح: "إن جل من تراهم من المنعمين المترفين، والأغنياء الموسرين، لو كشفت عن باطن أمرهم، وحقيقة أحوالهم، وخبايا معيشتهم، لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف، ويدعو إلى الرحمة والشفقة، لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة، ولأيقنت أن الرجل الأجير، هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالاً".

وقد يوظف المشهد في الهمز واللمز والتعريض، يقول عند الحديث عن الطب والأطباء: "وأنا أنصحك، لا تعتمد في الطب إلا على أطباء الغرب، أولئك قوم قد برعوا في معرفة الأمراض، وتشخيص الأعراض ... وليس بين الوطنيين من يماثلهم ويدانيهم .... إن من بين هؤلاء الأطباء من لا يرى في صناعته إلا آلة لاجتلاب الرزق واصطياد الربح، واستدرار الدراهم والدنانير؛ حتى يصلوا إلى اكتناز الأموال ... فهو يدخل على المريض طامعًا في ماله، لا طامعًا في شفائه ...".

وبعد طول المعاناة من مخالطة الناس وخبرتهم، والتلظي والحرقة من سوء معاملاتهم، وبعد أن يفصح عن هذه السوءات في قوله، يركن الباشا ورفيقه إلى العزلة؛ لطلب العلم، ودراسة الأدب: "إن سالمتهم حاربوك، وإن وادعتهم ناصبوك، وإن صادقتهم خانوك، وإن واثقتهم كادوك، وإن خالطتهم لا تأمن الاعتداء:

**عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان، فكدت أطير**

فلا راحة في الدنيا إلا لمن تنسك وتزهد، ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد، وأبعد الناس عن معاشرة البرايا، أقربهم إلى كرم السجايا".

ويأسى الباشا على ما ضاع من أيام المهاترات: "إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الأيام التي أضعتها من سالف عمري فيما لا يجدي، ولا يفيد من مشاغل الدهر، وملاهي العيش، ويا ليتني كنت قصرت همي منذ صباي على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتلاب العلوم".

لقد أبرز العمل لونين من ألوان الحياة متباينين، الحياة الأولى للباشا أيام محمد علي، حيث ركوب الخيل، وإغلاق أبواب القاهرة ليلاً، وعدم التجوال إلا بكلمة السر، وسيادة التعليم الأزهري، والتردد على مجالس العلماء وبيوت الأمراء، وسيادة الصفوة من القواد والأتراك، وبعض الأجانب. أما الحياة الثانية، بعد بعث الباشا، فهي حياة الصراع والزحام، وتدني

المستوى الحياتي لدى أكثر الفئات، وحيث تشتد النزعات والخصومات، وتزدحم أقسام الشرطة والمحاكم بالخصوم والمتقاضين.

أما الرحلة الثانية فإلى باريس، وهي مدينة قصد الراوي اختيارها دون غيرها؛ لإبراز جوانب المفارقات في الحياة بينها وبين القاهرة؛ بل هي المدينة التي كان يفتتن بها علية القوم من كبار الساسة والأثرياء، ويعدونها المدينة الفضلى ذات الوجاهة والجمال، والحسن والجلال: "أم المدائن الكاملة، مهبط العمران والحضارة، ومظهر الزينة والنضارة، وموطئ العز والمجد ...".

لقد أطنب الراوي في وصف باريس وأسهب، جعلها مدينة المدائن التي لا مثيل لها في القديم أو الحديث، مبرزًا جوانب من العادات والتقاليد والسلوكيات، التي تبرز أيضًا جوانب المفارقات بين سكانها وسكان القاهرة، الذين احتد في لومهم والسخرية منهم: "إننا لا نزال راقدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والخمول، يقولون فنسمع، ويأمرون فنصدع، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر، وينقصون من أرضنا فنخمد، ويحتلون ديارنا فنقبل ...". ثمَّ يشاهد الباشا ورفيقه أنواع الصناعات والفنون، وأماكن الآثار والتماثيل والحدائق والمتنزهات والمعارض والقصور.

وفي هذه الرحلة ثالث الرفيقين حكيم، وهي مثالثة حكيمة من الراوي؛ إذ لم يمروا بمشهد إلا كانت منه العبرة والموعظة والثمرة والفائدة، وكسب المعرفة، والتاريخ على لسان الحكيم: "وأقمنا مع صاحبنا الحكيم نهتدي في سيرنا بهديه، ونستضيء بنور فكره ورأيه، ونتبعه اتباع الإبل لحاديها ...".

وآخر الأقوال في الحديث قول الحكيم: "لهذه المدينة الكثير من المحاسن، كما أن لها الكثير من المساوئ، فلا تغمطوها حقها، ولا تبخسوها قدرها، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ويلتئم بكم، واتركوا ما يضركم وينافي طباعكم، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعتها وعظيم آلائها، واتخذوا منها قوة تصد عنكم أذى الطامعين وشره المستعمرين، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم، وجميل عاداتكم ...". لكن حين يكون التقليد بلا وعي ولا حكمة، ولا تبصر أو روية فهو الخراب، وهو النكبة لأنه الطلاء الزائف الذي لا يفيد.

**الآليات الفنية:**

تشمل الآليات الفنية المقومات الأسلوبية التي عالج بها المويلحي عمله الفني هذا من حيث رسم الشخصيات والأحداث والمقومات الدرامية الأخرى؛ كالصراع، والنمو، وعوامل السرد

أو الحوار، والإثارة في كل، والتناص ومحاوره وأهدافه، والاستطراد، وإسقاطات المؤلف على الحدث، والهدف الاجتماعي والسياسي من كل ذلك، وأخيرًا المآخذ والتقويم.

مما يشد القارئ، ويثير اهتمامه تلك الصور والسلوكيات للشخصيات الشعبية التي أوردها المويلحي، وقد صبغها بالصبغة الغريبة والشاذة في عيني الشخصية المحورية، وهي الباشا الذي يرى كل شيء فيه العجب والغرابة، حتى بعض علماء الإسلام الذين رمز إلى بعضهم بالشيخ المتخلف: "قل ما شئت في كسل علماء الدين الإسلامي، وسوء تراخيهم، وانشغالهم عن العلم لا بالعلم، ولقد بلوت مجلسًا من مجالسهم ضاق منه صدري، وعيل صبري، ولا أزال كلما تذكرته جاش بي الهم والغم، وتملكني الأسف والحزن".

ومن الصور السافرة أيضًا صورة رجل البوليس المشغول بجمع عينات الفواكه واللحوم والخضروات من الباعة في السوق، وصورته وهو يلفق التهم للأبرياء، وصورة المحامي وسماسرته، وصورة المتقاضين وهم في تضارب وتساب وتلفيق، ويأس وقنوط وتورط، والبحث عن كسب القضايا بالوسائل غير الشرعية.

أما المقومات الدرامية، فقد برز منها الحوار في كثير من المواقف والسرد في مواقف أخرى، وأسلوبه جاء متوافقًا مع الشخصيات التي ورد على ألسنتها، والأسلوب يتوافق أيضًا مع المستويات الاجتماعية لهذه الشخصيات، مع بروز الجانب العقلي في العرض، وعامل النمو في الحديث يتصاعد، ويسير في المستوى التسلسلي للحدث، وطور السرد والحكي والاستطراد قد يؤثر على المتابعة، لكن عوامل الإثارة المتكررة قد تشفع، حيث تشد انتباه المتلقي، وتصنع عامل التشوق إلى معرفة الحل بعد تعقيد الموقف.

**التناص:**

التناص هو تفاعل النصوص التراثية مع صياغة العمل الفني، بغرض تقوية بنائه، وتأكيد مضمونه، وإعطائه مزيدًا من الجمال الفني في الشكل والصياغة. وللتناص أدوات وقوالب، أو محاور وآليات، منها القرآن الكريم، ويعرف بالتضمين أو الاقتباس، ومنها الكتب المقدسة، ومنها الشعر والنثر، ومنها وقائع التاريخ وأحداثه، ومنها الشخصيات والمدن والبلدان، ومنها الأساطير، ولكل منها دلالتها والغرض الذي جاءت من أجله.

وحديث عيسى بن هشام يزدحم بآليات التناص المختلفة والموظفة توظيفًا جيدًا؛ حيث تعامل معها المؤلف بفهم ووعي، وحسن اختيار للغرض المقصود، وهي تؤكد سعة ثقافة الكاتب، وتعدد مصادرها.

**مصادر التناص:**

**أولاً- القرآن الكريم:**

هو المصدر القوي، والمورد العذب الكثير الزحام، الذي يشرف كل نص أدبي أن يأخذ من قبسه؛ ليقوي من بنيانه، ويضيء من ظلماته.

يأتي النص القرآني لتأكيد العبرة والموعظة من الحدث، لا سيما ما يخص الممالك والأمم التي بادت وزالت، كقوله: "الممالك أمست ترابًا { **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ** }". ويأتي أيضًا للتحذير من أمور مستقبلية، مثل ردود أفعال قد تجر إلى ما لا يحمد عقباه؛ كمخاطبة الراوي الباشا، وتحذيره من نفاد صبره تجاه بعض المواقف، التي يظنها جانحة عن الصواب، وفي هذا يستعيد قصة موسى (u) مع الخضر: { **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً** }، ثمَّ { **قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً** }. وقد يأتي النص في مواضع النصح والإرشاد؛ للإقبال على ما يفيد وينفع؛ كقوله تعالى: { **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** }، وقوله: {**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** }. والتناص القرآني في الحديث له دلالته في رسم مقومات شخصية المويلحي، فهي تتميز بالورع والحصافة والذكاء والإخلاص، ومعالجة الأمور بعقل ثاقب، ودراية واعية، ولها إسقاطاتها على الحدث، والوصول إلى الغرض من وراء حجاب على ألسنة الشخصيات وسلوكياتها، التي تمثل أدوار الحديث، ويتخذ هذا وسيلة قوية للنقد الاجتماعي.

**ثانيًا- الشعر:**

يعد التناص الشعري الرصيد الأوفر في حديث عيسى بن هشام، وهو متنوع الأغراض، ويرتبط بالحدث، وقد يكون بيتًا أو أبياتًا، وأكثر هذا التناص لا ينسب لقائليه، وهو مستمد من عصور أدبية مختلفة بدءًا من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث. ومن أهم الأغراض التي يخدمها التناص الشعري العبرة والموعظة، وأول تناص استمده المؤلف من شعر أبي العلاء المعري، وهو قوله:

**خفف الوطء، ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد**

**وقبيح بنا وإن قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد**

**سر إن اسطعت في الهواء رويدًا ... لا اختيالاً على رفات العباد**

وربما يؤكد هذا أن المويلحي قرأ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وأفاد منها كثيرًا، وهو ما أشرنا إليه سلفًا. والتناص الشعري قد يحمل أيضًا تناصًا، كالبيت الذي استعاده الباشا في أحد المواقف:

**طـــال منـــي تحمـــل خلـــت أنـــي قـــابض مـــن أذاتـــه فـــوق جمـــر**

النص المأثور: "يأتي زمن على أمتي، القابض فيه على دينه، كالقابض على جمرة".

ومن التناص الشعري أبيات تجري مجرى الحكمة والمثل السائر، وهي كثيـرة أيـضًا، وتهدف إلى تأكيد الوجهة في علاج الغرض أو الموقف، وقصد المؤلف من خلاله إسـقاطاته على الحدث أو الشخصية، ومن هذه النماذج:

**وعين الرضـا عـن كـل عيـب كليلـة كما أن عين الـسخط تبـدي المـساويا**

**إذا أقبل الإنـسان فـي الـدهر صـدقت أحاديثـه عـن نفـسه، وهـو كـاذب**

**إن الأميـــــر هـــــو الـــــذي يـــضحى أميـــرًا يـــوم عزلـــه**
**إن زال ســـــــلطان الـــــولا يـــة لـــم يـــزل ســـلطان فـــضله**

**إذا رام كيـــدًا بالـــصلاة مقيمهـــا فتاركهـــا عمـــدًا إلـــى الله أقـــرب**

**غنى النفس ما يكفيـك مـن سـد خلـة فإن زاد شـيئًا عـاد ذاك الغنـى فقـرًا**

**ومـن هـاب أسـباب المنايـا ينلنـه ولـو رام أسـباب الـسماء بـسلم**

**ثالثًا- السير والتاريخ:**

ومن محاور التناص استعادة قصص الأنبياء والرسل والملوك والحكام والحكماء، وأنبـاء الأمم والممالك، ومن هذا قصص إبراهيم وموسى – عليهمـا الـسلام– وهرقـل وكـسرى، والفرس والروم، وقصة هاروت وماروت، اللذين يعلمان الناس السحر.

ولا يخلو الحديث من ألوان من الأساطير، وبعض القصص المنتحلة؛ كحكاية المرأة التي غرق ابنها في اليم، فاستنجدت مرات بمن أسمته الغوث، ثمَّ أعاد إليها ابنها بعد المرة الثالثة، وهناك بعض القصص تنسب إلى أصحاب الطرق والمشايخ؛ كالشيخ أحمد الرفاعي وغيـره، ولها ارتباط وثيق بثقافة المويلحي، والاعتقادات السائدة في الفترة التي وجد فيها المؤلف.

ولا ينقص من هذا العمل الفني، ومن قيمته العالية، ما جاء من هنات في التعبيرات أو في بعض المحسنات؛ كاستعمال تعبيرات لا تتوافق مع شخصية قائلها؛ كقول الباشا: "كيف لا تخر الجبال الشم إذا استنزلوا منها الأراوي العصم؟" فالأراوي جمع أروى، وهي الظباء، والعصم: التي بها بياض، وهو تعبير فوق المستوى الثقافي للباشا ذي العجمة التركية.

أما المحسنات البديعية فهي موظفة بطريقة فنية غير متكلفة إلا ما ندر منها؛ كقوله:

- "وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف؛ للوقوف على تلك الأوقاف"
- "وتساءل العابر وابن السبيل عن المسجد والسبيل"،
- "ويبكي لرسوم الأطلال والديار، بكاء عزة أو صاحب نوار"
- "ما هذا الصياح في الصباح؟
- "قال الخليع: أنا أطلب أناناس، فرد عليه العمدة: من قال إنك لست من الناس؟"
- "الفلاح لا يصلح جلده إلا بجلده".

وفي الحديث كلمات أعجمية أو معربة؛ مثل "كشكول"، "قرقولات"، "كارت"، "أتوموبيل"، "أوتيل"، "نوتة"، "البرنس".

وأخيرًا، لقد نجح المويلحي في الإفادة من سابقيه من كُتاب المقامات، لكن بطريقة عصرية متحررة من قيود الصنعة، التي سادت في المقامات، كما أنه لم يكن صدى لهؤلاء السابقين، بل جاءت طريقة المعالجة للأحداث وللشخصيات موائمة للعصر وللبيئة، سائرة في ركب الإصلاح الذي قصده زعماؤه في هذه الفترة، ويؤكد هذا صراحةً إهداء هذا العمل لهؤلاء الزعماء جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، والده إبراهيم المويلحي. كما هو مدون في الجزء المحذوف من الكتاب في المقدمة وفي الخاتمة.

والحديث يعد أكثر النصوص شاهد عيان على القيم السائدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعلى التمايز الواضح بينها وبين الزمن السابق عليها، لكن الحديث نجح في جعل الباشا يندمج في النهاية مع قيم العصر، ويجتاز حالات الرفض والقلق والضيق التي سيطرت عليه أولاً، ثمَّ حالات الدهشة والتردد والحيرة ثانيًا.

كما نجح المؤلف في توضيح أسباب التأخر والتخلف والفساد في المجتمع، ممثلةً في التقليد الأعمى، والمحاكاة السلبية للغربيين، دون اعتبار لعدم توافق الطباع، واختلاف الأذواق والقيم والعادات، وفي الوقت نفسه التنكر للقيم السوية، والموروث الثقافي السوي السليم.

لقد نجح المويلحي في جعل المتلقي يتقبل أحداث الحديث، ويتابعها، وينسى الشرارة الأولى التي تولد عنها هذا العمل، وهي بعث الباشا من قبره.